مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (6)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (6) 2014

تطور سياسة العمران في الأندلس والعوامل المساهمة في تطورها (138- 422هـ/ 755- 1031م)

الدكتورة وفاء صارم *

(تاريخ الإيداع 11 / 8 / 2014. قبل للنشر في 5 / 11 / 2014)

□ ملخّص □

تتميز العمارة عن العلوم والآداب والفنون بأنها أهم المراجع وأصدقها لتجسيم مراحل التاريخ، وتطور الحضارات، وإذا كانت العلوم والآداب قد ازدهرت في الأندلس فإن العمارة تكونت عربية إسلامية بالمطلق، وهذه الصيغة لعب فيها الدور السياسي والاقتصادي والظروف الحلية، دوراً هاماً ولا نستطيع أن نفصل دور الدين عنها، لذلك نشأت مدن وتطورت، وقصور ومساجد كان لها هدف وليس فقط الجمالية، وهذا الأمر سيحاول البحث الوقوف عندها.

الكلمات المفتاحية: عمارة – إسلامية – خلافة – إمارة – مدن

* دكتورة – قسم التاريخ– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (6)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (6) 2014

Architecture policy in Andalusia and the factors contributing to its development (138 – 422 AH / 755- 1031 AD)

Dr. Wafaa Sarem *

(Received 11 / 8 / 2014. Accepted 5 / 11 / 2014)

□ ABSTRACT □

Architecture differs from science and arts by being the most important and reliable reference in reflecting different phases of history and the development of civilizations. If science and arts have flourished in Andalusia, Architecture was formed with an absolute Islamic nature. This formula was influenced by the role played by politics, economy and the local issues. Needless to say that the role of religion can never be separated from architecture. Therefore, many cities emerged and many palaces and mosques developed. All these architectural buildings have certain goals not only aesthetic. This issue is to be addressed and discussed in this research.

Key words: Architecture, Islamic, caliph, emirate, cities

* **Doctor. Department of History. Faculty of Arts and Humanities. University of Tishreen. Lattakia. Syria.**

مقدمة:

سياسة العمران، هي مجموعة من الأسباب والضرورات السياسية والعسكرية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية وغيرها، التي شجعت على إقامة منشآت عمرانية متنوعة، في مجال بناء المدن والقصور و الموانئ البحرية والمرافق العامة وخاصة فيما يتعلق منها في عملية استجرار المياه من أماكن الوفرة إلى أماكن الحاجة و وغير ذلك من أمور.

تتميز العمارة عن العلوم والآداب بأنها من أهم المصادر وأصدقها قي تجسيد مراحل التاريخ، والتطور الحضاري، وفي الأندلس اصطبغت العمارة بصبغة عربية إسلامية واضحة المعالم، وهذه المعالم التي مازال قسم منها شاهداً على هندسة العمارة المميزة في هذا العصر، وذلك بإقامة المساجد التي تعد نواة لعمارة المدن وتمددها، حيث أن المسجد يصبح بمرور الزمن مركز المدن والحواضر وقلبها النابض فمنه تتفرع الطرق الكبيرة المؤدية إلى أبواب المدينة، ثم تتفرع منها الشوارع والأزقة الموصلة للأحياء. وحول ساحة المسجد تقام الأسواق والحمامات والفنادق والقيساريات. وبداخل المسجد تعقد الاجتماعات السياسية، وتوزع ألوية الجيش، وتدرس العلوم الدينية والعلوم العامة. وهكذا نجد أن للجامع أثراً إيجابياً على حياة المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولقد كانت هذه الظاهرة تتبع في كثير من المدن التي يفتحها أو يختطها المسلمون في شتى أصقاع المعمورة، فهذا هو حال دمشق والإسكندرية وقرطبة وأشبيلية وطليطلة وغيرها.

ولقد كانت بلاد الأندلس بمآثرها المختلفة، العلمية والعمرانية والفنية، مركز إشعاع مستديم للحضارة الإسلامية منذ أن توطدت جذور الحكم العربي فيها، ولاسيما في عهد عبد الرحمن الداخل ذلك الأمير الذي كرس حياته لبناء الدولة العربية في الأندلس. فبعهده بدأ فن العمارة يتلمس طريقه في الأبنية الدينية والمدنية. ومازالت في الأندلس إلى يومنا الحالي شواهد حية على صدق تلك الحركة الكبرى في البناء والتشييد. ذلك أن عناصره المعمارية والزخرفية تؤلف البذور الأولى للفن الأندلسي، حتى أخذت زخارفه تشع في المشرق والمغرب، بل أثرت في الزخرفة المسيحية المجاورة. ولا شك أن عهد الانطلاقة المعمارية هذا يشف عن مثل من أروع أمثلة العمارة العربية بل العالمية في العصر الوسيط.

وتتابعت العهود على بلاد الأندلس ، وكلها كانت تولي اهتماما بالغا بالفن ومظاهر العمارة المختلفة المدنية والدينية والدفاعية. ومازالت قائمة منذ تلك العهود شواهد معمارية حية تميز بين عهد وآخر، وعلى الرغم من قلة هذه الشواهد المعروفة المتكاملة البناء في عصرنا الحاضر كجامع قرطبة وحمراء غرناطة، ومنارة أشبيلية وبرج الذهب فيها، إلا أن هناك الكثير من الآثار الأندلسية المتناثرة في مدن وقرى إسبانيا. بل لا نبالغ إذا قلنا أن العمارة الإسبانية في معظم بلدان وسط وغرب وجنوب شبه الجزيرة الأيبيرية هي ذات طابع أندلسي يسهل تمييزه من خلال بعض العناصر المعمارية والزخرفية ذات الأصل العربي التي قدر لها أن تتطور في إسبانيا.

و عمارة بلاد الأندلس تفردت بمميزات أملتها ظروف عديدة من أهمها نماذج الحضارات وتتابعها في حقبة تاريخية غير طويلة، إلى جانب توافر العديد من الإمكانات التي تساعد المعمار والفنان العربي على الإبداع والتفوق من قبيل توفر المادة الخام من الأحجار والرخام والأخشاب، وكذا توفر الظروف الجغرافية المناسبة التي تدفع إلى الابتكار والتطوير. وهذه المنشآت المعمارية الكثيرة فهي تعد دلالة على الرخاء الاقتصادي، والعمارة العربية في الأندلس خضعت لعدة عوامل.

أهمية البحث وأهدافه:

انسياق العديد من المؤرخين إلى دراسة الشكل دون المضمون، الذي أعطى الروح للعمارة العربية الأندلسية وجعلها تخطف الأبصار. والبحث يهدف إلى دراسة العمارة الأندلسية دراسة تعتمد على الكيفية، ويظهر أهمية هذه العمارة من خلال تبيان الأصيل الثابت من كل التراث السابق عليها، كيف أنها احتضنت المناسب كما هو أو طورته فيما لا يتعارض مع الدين الإسلامي مناسبة للإنسان والمكان والزمان.

منهجية البحث:

لتحقيق الأهداف فبعد جمع المعلومات من مختلف المصادر والمراجع فإن الدراسة اعتمدت بشكل أساسي على المنهج الوصفي والتحليلي المؤسس للاستقراء والاستنتاج.

وسيكون للدراسة اتجاهان أولهما النظرة الجزئية من خلال التركيز على الأسس التي وضعت للعمائر من خلال نموذج واحد أو أكثر من المباني. والنظرة الشمولية من خلال التركيز على دراسة الأنواع المختلفة الرئيسية التي شكلت في مجملها العمارة الأندلسية.

أولاً: الدين ودوره في العمارة الأندلسية:

لدراسة الفن العربي الإسلامي في الأندلس لا بدّ من تحليل عناصره، والتعرف على ما هو أصيل ومبتكر فيه، أو ما هو منقول أو مقتبس عن الفنون الأخرى. فهو كسواه لم ينشأ من العدم، بل اكتسب مبادئه الأولى نتيجة التأثر بسابقه وتأثيره بمن جاء بعده بحيث شكل إحدى حلقات التطور الحضاري، حيث تأثر بما سبق من فنون، وأثر وترك بصماته على الفنون اللاحقة[1].

فالفن العربي الإسلامي فن تأثير وتأثر، أي أنه تأثر بالفنون السابقة له، ثم أثر في هذه الفنون، والفن الأندلسي من الطبيعي أن يتأثر بالمحليات القديمة السابقة ولكن تم تطويرها ضمن نطاقه الخاص(المناسب للإسلام)، (مثلا: وجود المشربيات).

وعلى اعتبار الطهارة والنظافة من مبادئ الإسلام. قال تعالى:" *إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين*[2] "، وبما إن الوضوء ركن من أركان الصلاة، فالمسلم يتوضأ عدة مرات في اليوم، وهذا الأمر أدى إلى وجود عنصر الماء الجاري في كافة المباني، فانتشرت الحمامات والمرافق الأخرى ويتوضع داخل كل مسجد أو قصر، بركة ماء(مزدوجة الغرض للوضوء والزينة)، من هنا لعب الماء دوراً مهماً في زينة العمارة العربية الإسلامية في الأندلس، وأضاف نماذج، وقام بتحويل الفراغ، فالماء يلعب دوراً فريداً في العمارة الإسلامية، ويعكس على الديكور نماذج متنوعة، تزود العين والفكر بالراحة، وفناً حركياً، وبنفس الوقت فناً راسخا [3].

---

[1] – الباشا(حسن): المدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت، ص20 / عطية(محسن محمد): موضوعات في الفنون الإسلامية، دار المعارف، ط2، مصر، 1994، ص21/ Jones, Dalu: Architecture of the world, Edited by George MICHELL. 1978 thames and Hudson, Ltd, London, PERR IN Ted 1984, P165

[2] – سورة البقرة، أية 222.

[3] –Jones, Dal, Architecture, P172

وما يمكن ملاحظته من العمارة الأندلسية بشكل خاص والعربية بشكل عام أنها توفر الخصوصية الخارجية سواء على نطاق المسكن أو النسيج العمراني ، حيث تنفصل الحياة الأسرية الداخلية عن المحيط الخارجي، وقد ساعد على ذلك انفتاح المسكن على الفناء الداخلي الذي يحقق متطلبات الإنسان النابعة من الدين لأن الفناء يصبح متنفسا ومطلا لمعظم حجرات المسكن وبالتالي تقليل الفتحات على الشارع مما يساعد على حفظ حرمة المسكن وحماية سكانه من أعين الغرباء ، كما يوفر الفناء المكان الملائم لمزاولة الأنشطة الاجتماعية المختلفة ويعمل على تقوية الروابط الاجتماعية بين أفراد الأسرة الواحدة أو بين الأسر وبعضها ويوفر الخصوصية الكاملة لأهل المسكن لقضاء أوقات الفراغ[1].

كما تميز الفكر المعماري الأندلسي بالوسطية وهذا الأمر نابع من وسطية الإسلام، وهذه الوسطية دعت إلى عدم الإسراف وهنا لابد من ذكر قصة بناء مدينة الزهراء من قبل الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث صرف الكثير من الأموال عليها وأراد ان يصنع قبة المدينة من الذهب الخالص، وتراجع عن ذلك العمل وبني القبة من الطين، عندما سمع القاضي منذر بن سعيد البلوطي[2] يرتل آيات من سورة الزخرف: ((*ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون*[3])).

ولا نستطيع أن نغفل الحديث دور الخط عند التطرق لتأثير الشريعة على العمائر، فاستعمال النقوش الخطية العربية، من الميزات الظاهرة في الزخرفة الإسلامية، فكثيراً ما نرى آية من القرآن الكريم، أو عبارة من عبارات التحية أو التهنئة حول حافة تحفة، أو إفريز [4] بناء في شريط زخرفي على أثر من الآثار، فيهدينا إلى معرفة تاريخ هذا الأثر ومصدره [5] .

والخط دائماً يحتل وسط المساحة المزخرفة، كأنه الموضوع الرئيس لها، وتحيط به العناصر النباتية والهندسية، كأنها عناصر مساعدة له [6] ، وقد استخدم الخط وسيلة للزخرفة والتزيين بسبب طواعيته وإمكانية تأقلمه مع الشكل والجسم ، وكان وسيلة بديلة عن الزخارف الممنوعة والمحرّمة، وتكمن جماليته في رشاقته وقابليته للتحوير والتأقلم.

والخط يسجل كلام الله سبحانه وتعالى، وهو موجود في أنماط الأبنية المختلفة عبر العالم الإسلامي، والأبنية قليلة في العالم الإسلامي التي لا تحتوي على نقوش خطية [1]،وهكذا أهمية الخط لا يمكن أن يكون مبالغاً فيها، ذلك

---

[1] – هلال محمد(احمد) : نمط البناء الموجه إلى الداخل النموذج الأمثل لعمارة الصحراء.ندوة التنمية العمرانية في المناطق الصحراوية ومشاكل البناء بها، وزارة الاشغال العامة والإسكان، الرياض 2002م.

2 – منذر بن سعيد: هو منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن قاسم بن عبد الملك ابن نجيح النفري، من أهل قرطبة ولي قضاء ماردة، ثم قضاء الثغور الشرقية، ثم استقضاه عبد الرحمن الناصر قضاء الجماعة سنة 339 هـ، كان شاعراً، له كتب في القرآن والسنة توفي سنة 355 هـ، للمزيد المقري(شهاب الدين احمد بن محمد ت 1041هـ): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق يوسف محمد، دار الفكر، بيروت، 1998،ج1، ص 16/ السيوطي(جلال الدين بن أبي بكر الشافعي ت 911هـ): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنجاة، مصر ' 1326هـ، ص 398/ اليافعي(أبو محمد بن عبد الله بن أسعد بن علي عفيف الدين ت 768هـ): مرآة الجنان وعبرة اليقظان، حيدر آباد، 1338هـ، ج2، ص 358/ المقري(شهاب الدين احمد بن محمد التلمساني ن 1041هـ): أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا و ابراهيم الأبياري و عبد الحفيظ شلبي، القاهرة، 1942، ج2، ص 272/ ابن كثير|(عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمرو بن كثير القرشي ت 477هـ): البداية والنهاية، القاهرة، 1358هـ، ج11، ص 388/ ابن العماد الحنبلي(أبو الفلاح عبد الحي ت 1089هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج3، ص 17/ الزركلي(خير الدين): الأعلام، بيروت، ط3، 1969، ج8، ص 229/ عنان(محمد بن عبد الله): الخلافة الأموية والدولة العامرية، قسم 3، ج4، ص 512.

[3] – سورة الزخرف، آية 33.

[4] – إفريز: هو الإطار الخارجي المطوق والبارز في أعلى الجدار ويعرف أيضاً بالكورنيش أو الطنف.

[5] – مجموعة مؤلفين: المساجد في المدن العربية، إعداد المعهد العربي لإنماء المدن، مصر، 1990م، ص264.

[6] – عبد الحميد(سعد زغلول): العمارة و الفنون في دولة الإسلام، مكتبة الوفاء، القاهرتو 1986،ص190.

لأن هذا الشكل من الفن قد احتفظ عبر قرون بأعلى المستويات الجمالية والفنية، ومن الممكن اعتباره التراث الوحيد الذي استمر وهو مطلب للمسلمين، يمارسونه في كل المناطق والعصور الإسلامية [2].

فالإسلام دين العقل والعلم وانعكس ذلك المبدأ على التصميم المعماري في مبادئ المساجد والقصور والمكتبات الملحقة بها.

وبالنسبة للدين لا نستطيع أن نغفل تأثير المذهب الأوزاعي[3] الذي انتقل مع الأمويين إلى الأندلس، لكنهم اتبعوا بعد ذلك المذهب المالكي، وظهر هذا التأثير من خلال زراعة الأشجار والأزهار في صحن المسجد، وهذا الأمر حرمه المذهب المالكي. لكن الأوزاعي يبيح زرع الشجر في المسجد، وربما كان هذا مرتبطاً بالذي تميز به الأندلسيون والذي رأوا بمقتضاه أن الجو الروحي الذي ينبغي أن يسود بيوت العبادة لا يتنافى مع القيم الجمالية التي تضفي البهجة على المسجد[4].

ثانياً: دور العامل السياسي:

التيارات السياسية، وما كانت تحمله من تأثيرات معينة كان لها الدور الأكبر في تغيير ملامح الفن السائد، وتوجيهه في خط سير جديد، وهذا الأمر أدى إلى وجود مدارس فنية متنوعة، تتوافق مع العهود السياسية البارزة في التاريخ، والسبب في هذا أننا نلحظ مع بداية كل عهد سياسي، أو لدى تولي أسرة حاكمة معينة، ظهور اتجاهات وتأثيرات جديدة على ملامح الفنون والصناعات، التي أخذت تتوضح شيئاً فشيئاً لتعطي تنوعاً كبيراً في كثير من التحف والمباني[5].

استطاع عبد الرحمن الداخل أن يبعث ملك أسرته التي هوت بالمشرق، ويعيد مجدها العريض الذي اندثر ، فأكسب إمارته الأندلسية وعاصمتها قرطبة، ثراء وتنوعاً وريادة ظلت متقدة عبر خلفائه أبنائه وأحفاده. وأصبحت قرطبة كما أراد صاحب الفضل الكبير في قيامها، "دمشق أجداده" في منازلها البيضاء ذات الأحواش الداخلية المزينة بالأزهار والورود ونافورات المياه[6]".

ومما هو جدير بالذكر أن بني أمية عندما قدموا إلى الأندلس حملوا معهم ميولهم المشرقي إلى الأندلس، فحياتهم في الأندلس كانت شامية الروح، مروانية السياسة والاتجاه. فقد جعلوا جميع دواوين الدولة على جانب قصر الإمارة وحوله في منطقة واسعة عرفت بعد ذلك بقصور الإمارة. وكانت العادة إذ ذاك أن تكون إدارة الدولة وقصر الخليفة شيئاً واحداً. ومن الطبيعي أن يتأثر التصميم المعماري للمباني في الأندلس برغبة الحكام التي ظهرت في العديد

---

[1] – ***Jones, Dalu: Architecture, P*168.**

2 – مجموعة مؤلفين: وحدة الفن الإسلامي، معرض عن الفن الإسلامي، مركز الملك فيصل، الرياض، د.ت. ، ص15.

[3] - الأوزاعي: هو عبد الرحمن بن عمر بن محمد الأوزاعي(ت 157 هـ- 774 م): إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، ولد في بعلبك سنة 88 هـ ونشأ في البقاع وسكن بيروت، عُرض عليه القضاء فامتنع، وله كتاب السنن في الفقه والمسائل، ويقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عليها. للمزيد: الزركلي، الأعلام، ج3، ص 320/ ابن النديم (أبو الفرج محمد بن اسحق ت 383 هـ): الفهرست، تحقيق رضا نجده، طهران، د.ت،ج1، ص 237/ الشطاط، تاريخ الإسلام في الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة، ص 113/ شبارو (عصام محمد): تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، دار مصباح الفكر، بيروت، 1983، ص 48.

[4] - ابن سهل الأندلسي(الأصبغ عيسى): وثائق في شئون العمران في الأندلس (المساجد والدور) مستخرجة من مخطوط الأحكام ، تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف، مراجعة محمود على مكي- مصطفى كامل اسماعيل، المركز العربي الدولي للإعلام، القاهرة، ص 3.

[5] – الريحاوي(عبد القادر): العمارة الإسلامية، دار البشائر، ط2، دمشق، 1419 هـ = 1999 ، ص38.

[6] – العبادي(أحمد مختار): في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ص.113 11 .

من المباني وهذا الأمر قد يكون نابع من رغبة الحكام من نقل التقاليد والمؤثرات المشرقية، ويتفق المؤرخون على أن عبد الرحمن الداخل، عمل كل ما في وسعه على إحياء أمجاد الدولة الأموية البائدة لينغِّص بذلك الحياة على أعدائه العباسيين في المشرق. ومن ثم لم يألُ جهداً في نقل كل مظاهر الحياة والحضارة المشرقية إلى الأندلس[1]. ولعل المنية من بين تلك المظاهر التي نقلها إلى هذا البلد، فاتخذت به طابعاً متميزاً طيلة الفترة المروانية وبعدها. وهكذا قام في بداية حكمه بإنشاء أول منية معروفة بالأندلس، هي منية الرصافة إلى الشمال الغربي من مدينة قرطبة. وقد أرادها أن تكون نظيرة لرصافة دمشق، منية جده هشام، فسماها بهذا الاسم : *((فاتخذ بها قصراً حسناً، ودحا جناناً واسعة، ونقل إليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية، وأودعها ما كان استجلبه يزيد، وسفر رسولاه إلى الشام من النوى المختارة، والحبوب الغريبة حتى نمت بيمن الجد وحسن التربية في المدة القريبة أشجاراً معتمة أثمرت بغرائب من الفواكه، انتشرت عما قليل بأرض الأندلس، فاعترف بفضلها على أنواعه[2]))*

فالأندلسيون لم يكن لديهم فن أصيل مستقل في عصر الإمارة، لكن ملامح هذا الفن بدأت تتوضح وترسم معالمها في عصر الخلافة. من هنا نصل إلى نقطة هامة أن الفن المعماري في الأندلس في عصر الإمارة تأثر في الفنون السابقة(المشرقية) وظهرت ملامحه على الشكل والمضمون وهذا التأثير كان واضحاً، أما الفن المعماري في عصر الخلافة فقد أثر في الفنون المجاورة لها.

فالحكام السياسيين لعبوا دوراً أساسياً في سياسة العمران، حيث إن الخليفة أو الأمير يحدد مكان ونظام وتخطيط المدينة حسب رغبته الشخصية لإشباع أهوائه(الراحة أو الاستجمام) كبناء المنيات، وتفيد مختلف الإشارات التاريخية المتوافرة أن المنيات بالأندلس شهدت بمضي الوقت . تطوراً كبيراً سواء في تصورها أو تصميمها حتى تكون قادرة على أداء وظائف ذات طبيعة سياسية وإدارية وعسكرية. ومن أجل ذلك، أقيمت بداخلها القصور ومرافق أخرى. وكان بعض الأمراء يتخذون المنيات للنزول بها كلما رغبوا في القيام بالرياضة المفضلة لديهم، وهي رياضة الصيد، خارج الحاضرة. وقد سبق الذكر أن عبد الرحمن الناصر خرج قاصداً منية البنتلي بشرقي قرطبة وهو يروم الصيد، وذلك في بداية حكمه[3]. كما كانت المنيات مقصداً للأمراء لقضاء فترة نقاهتهم مثلما فعل الحكم المستنصر بالله لما أصابته علة الفالج «التي لا يكاد يستفيق منها». فنصحه أطباؤه «بالرحيل من قصر الزهرا لغلبة البرد عليه [...] وهي سيدة القصور ومرتبة السرور ومفيدة الحبور [...] واحتل بمنية أرحاء ناصح حظيته، ولحق ولده الأمير هشام، فنزل بها وبات فيها»[4] وقد تركها بعد ذلك متجهاً نحو منية الناعورة التي «نزل بقصرها وأقام فيه إلى أن صلى الظهر». ومن هناك قصد قصر قرطبة، «فدخله من باب الجديد القبلي بركبة منقطعة»[5].

وكانت بعض المنيات تتخذ مقراً لعقد بعض الاجتماعات لتصفية بعض الصفقات لفائدة الخليفة كما وقع في عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله، وتحديداً سنة 363 هـ: ((في يوم الاثنين لعشر بقين من شوال [حينما] أنذر الحكام والفقهاء والعدول بالاجتماع بمنية ابن عبد العزيز، فحضره ووافاهم بها صاحب الخيل والحشم زياد بن أفلح، فأرسل في جعفر ويحيى ابني علي الأندلسي وقد كان أحكم معهما ما ذهب إليه أمير المؤمنين من دفع المال إليهما في أثمان عبيدهما الذين استعفوا

---

[1] – سالم(السيد عبد العزيز): قرطبة حاضرة الخلافة، دار النهضة العربية، بيروت، 1971، ج1.

[2] – المقري، نفح الطيب، ج1، ص 466.

[3] – ابن حيان(أبو مروان حيان بن خلف القرطبي ت 469هـ): المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، بيروت، 1965ص211.

[4] – ابن حيان ، المقتبس، تحقيق الحجي، ص 212.

[5] – المصدر السابق، ص213.

من خدمتهما ومن الخروج معهما ودعوا إلى الانتقال عن ملكيّتهما لسوء ما يجشمانهم، ونفذ العهد بالفصل معهما في التبايع بمحضر من الفقهاء والعدول على ما كان أبرمه معهما، خالفاه وانصرفا عنه وخشنا بالقول وجههما بالرد، وبدا من أكبرهما، جعفر، جفاء كثير واستخفاف لحق الخلافة المعظم شأنها، استبانت فيه غائلته وما يكن صدره من نيات شيعته، حتى علم من أهل العلم أنه نطق عن ضمير نغل، وصغو مستكن إلى أئمته الذين أظهر مفارقتهم من الشيعة [...] خالص إلى المشارقة [...] ووجب على زياد إعلام الخليفة بجميع ما دار في المجلس ووقفه عليه، وأمر باعتقال الرجلين لمكانهما والتوكل بهما، وركب إلى الخليفة من فوره، وهو بمنية أرجاء ناصح، فتوصل غليه من ساعته وأعلمه بما جرى بينه وبينهما، وما بدا من جعفر، فاحفظه وذلك. ونذكر ما تقدم لجعفر في هذا العام من سرف الجفاء الذي ذاع عنه ولم يخف عن الخاصة والعامة غله، ولن تسوغ احتماله السياسة، فأمر زياداً بالعود إلى المجلس إهانة جعفر ويحيى وأشياعهما بما يسوؤهما، وحملهما راجلين من مكانهما إلى سجن الدويرة بمنية الزهراء، فتم ذلك عليهما وقامت منه قيامتهما [...] فمكثا فيه بقية سنة ثلاث وستين وثلاثمائة وصدراً من سنة أربع وستين بعدها [1])).

وإلى جانب الدور السياسي والإداري الذي كان لبعض المنيات بالأندلس، فإن بعضها الآخر أعدت لاستقبال الوفود والطارئين من خارج الأندلس من مسلمين وغيرهم. و كانت بعض المنيات مهيأة لإيواء البعثات الديبلوماسية الأجنبية التي كانت تزور الأندلس من حين لآخر، وخاصة أيام حكم عبد الرحمان الناصر وابنه الحكم المستنصر بالله.

وهكذا وفدت على عبد الرحمان الناصر البعثة التي بعثها إليه قسطنطين السابع، إمبراطور بيزنطة، استقبلها الناصر استقبالاً كبيراً «في يوم مشهود». وكان وصولها إلى قرطبة ((في صفر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وتقدم كلام ابن خلدون أنها ست وثلاثون. فالله أعلم أيهما أصح. وتأهب الناصر لورودهم وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه، وأحسن قبول وأكرمه... وأنزلوا بمنية ولي العهد الحكم المنسوبة إلى نصر بعدوة قرطبة في الربض، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة جملة ومن ملابسة الناس طراً، ورتب لحجابتهم رجال تخيروا من الموالي ووجوه الحشم، فصيروا على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلاً لأربع دول، لكل دولة أربع منهم، ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه... [2].

كما أثرت الحياة السياسية والعسكرية على إنشاء المدن وتحديداً من بداية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، لأن المدن كانت في الأندلس كافية لاستيعاب كل النشاطات العربية، لكن بعد ذلك وبسبب تأثير عوامل سياسية وعسكرية، بدأ ظهور المدن، فكانت تماشياً لظروف متعددة كإنشاء مدن لأهميتها العسكرية كمدينة مجريط (مدريد) [3] لتؤدي وظيفة عسكرية بحتة، من خلال موقعها المتقدم باتجاه شمال شرق و شمال اسبانيا، فهي قريبة من الثغرين الأوسط والأعلى، وشكلت إلى فترة زمنية طويلة قاعدة عسكرية للجيوش العربية، التي تنفذ عمليات عسكرية في شمال وشمال غرب اسبانيا، حيث تجمعت نواة المقاومة الإسبانية[4].

---

[1] – المصدر السابق، ص 171.

[2] – المقري، نفح الطيب، ج1، ص 366- 367.

[3] – مدريد بنيت في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي في عصر الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن. للمزيد: F.W. robins the story of water supply. Oxford. University. Press 1946. Pp. 116-118.

[4] – مكي(محمود علي): مدريد العربية، وزارة الثقافة، مصر، د.ت، ص 74/ أحمد (علي)- زعرور(ابراهيم): مظاهر الحضارة العربية في العصور الوسطى، جامعة دمشق، 2005- 2006، ص203.

وهناك مدينة مرسية بشرق الأندلس التي أنشئت لتتناسب مع بيئة الأجناد العرب، قبل انتقالهم إلى الأندلس[1].

كذلك أمر الخليفة الناصر لدين الله ببناء مدينة عسكرية هامة، وهي مدينة سالم[2] من اجل أن تكون قاعدة دفاعية في مواجهة دولة قشتالة الإسبانية، التي كانت تتطور بسرعة فائقة نحو تشكيل جبهة قوية للإسبان، من أجل التخلص من الوجود العربي بشبه الجزيرة الإيبيرية[3].

ومنهم من أراد إثبات رغبته وقوته كمدينة الزهراء[4] التي بناها الخليفة الناصر، الذي كان في عصره من أعظم الملوك، الأمر الذي جعله ينزع لتحقيق شيء على الأرض يعكس هذه العظمة، وقد احتوت على أبنية ضخمة وقصور مختلفة للخليفة و للوزراء .....إلخ. وهناك مدينة الزاهرة[5] التي أمر ببنائها المنصور محمد بن أبي عامر الذي كان يشعر بعقدة النقص تجاه الأمويين فأمر ببناء مدينة وقاعدة لحكمه، فهو دائماً كان لديه الشعور بأنه ليس أموي وأنه مغتصب للحكم. وبقيت كما بقيت الزهراء عبارة عن قصر كبير للحكم في قرطبة[6].

ليس فقط رغبة الحكام كان لها الدور الكبير في العمران، فكلما تحقق الاستقرار الداخلي والخارجي، زاد الاهتمام بالعمران، ومن الطبيعي أن يكون التطور العمراني في فترة الأمراء والخلفاء الأقوياء، نتيجة الاستقرار السياسي، ففي فترات الضعف لم يكن هناك مجال للقيام بأعمال العمران. و كانت أولى أعمالهم السياسية التي طورت عمارتهم على الصعيد الداخلي توحيد الجبهة الداخلية تحت قيادتهم، فقد كانت البلاد في أواخر عصر الولاة تعيش في حالة فوضى كبيرة ، و سفك للدماء بين الولاة المتنازعين على الحكم، فقاموا بضرب تلك العناصر،[7].

ومن الأمور السياسية التي حققت تطوراً للعمران تغيير مفهوم الحكم عن طريق إحلال سلطة الدولة مكان سلطة القبيلة، ففي عهد الولاة كان الحكم القبلي، أي أن كل قبيلة محكومة من قبل الزعيم ،الذي كان يسعى للحصول على المصالح و الامتيازات له و لأفراد قبيلته، و يتصرف مع بقية العشائر والقبائل وفقاً لهذه السياسة، وكانت بعض القبائل عندما تنفرد بالسلطة تتكل بغيرها من القبائل، وهذا التطور أدى إلى بناء أبنية على مستوى عالي إطارها العام يناسب جميع الناس وكان لمبدأ وراثة العرش أو تمركز السلطة في بيت الأمير الحاكم فقط، أثر كبير في استقرار

---

[1] – بنيت في عهد عبد الرحمن الاوسط، على أنقاض مدينة تدمير التي اندلعت فيها الفتنة القيسية واليمنية. للمزيد: ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص 124.

[2] – سالم: تقع إلى الشمال من شمال شرق اسبانيا، وتعد من أهم المدن المتاخمة للأسبان. للمزيد: ابن حزم (علي بن أحمد ت 456هـ): جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص 466.

[3] – احمد (علي)– زعرور0ابراهيم): المرجع السابق، ص 206.

[4] – بنيت الزاهرة إلى الشمال من مدينة قرطبة، في السفح الجنوبي لجبل العروس، على هيئة مستطيل طوله 1500م وعرضه 750م ، وعلى ثلاثة مسطحات متدرجة في الارتفاع، وتبعد عن قرطبة نحواً خمسة أميال، يجري بينهما الوادي الكبير، للمزيد: ابن عربي، محاضر الأبرار، دار السعادة، القاهرة، 1324هـ، ج1، ص 149/ المقري، نفح الطيب، ج1، ص 523/ ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبي ت 380 هـ): كتاب صورة الأرض، جزء أول، طبع ليون، 1967، ص 107

[5] – الزاهرة: تقع إلى الشرق من مدينة قرطبة بنحو ستة كيلو مترات، استمر ببناء المدينة نحو ثلاث سنوات، للمزيد: ابن عذارى(أبو العباس أحمد بم محمد ت 712هـ): البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب، تحقيق س كولان وليفي بروفنسال،، ج2، ص 294/ Carcia Gomez, Ruinade cordoba omeya, al– Andalus, vol, X11, 1947, 270

[6] – الحميري(أبي عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ت 710هـ): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1975، ص 56/ ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص 200.

[7] –ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي ت 683 هـ) : المغرب في حلى المغرب، تح شوقي ضيف، ط2، دار المعارف، مصر، ج1، 1955، ص 60 . / ستانلي (لين بول) : قصة العرب في اسبانية، ترجمة علي الجارم، مصر، 1960، ص 60

الأمور السياسية في فترة القوة وقدرتها على مقارعة المشاكل سواء في الداخل أم الخارج ، وهذا الأمر انعكس إيجابا، فقد كان الأمويون في الأندلس أحوج إلى الوحدة و إلى تركيز السلطة على هذا الشكل أكثر من غيرهم من الأسر الحاكمة في الأقطار الإسلامية الأخرى و ذلك بسبب طبيعة البلاد وتباين الأجناس والعناصر التي تقطنها[1] .

ومن هنا الذي ساعدهم على تحقيق التقدم العمراني تفوق مظاهر القوة على مظاهر الضعف في المجال السياسي هو إحداث التوازن بين القوات الخاصة التي أنشؤوها من الموالي والصقالبة والمغاربة ،ومن قوات القبائل المنتشرة في الكور، أو الولايات[2] .

هذه السمات التي ميزت الجانب السياسي الأندلسي، قاد إلى قيام معاهدات بين الأندلس والإمارات الإسبانية في الشمال ، أعطت للجانبين فرصاً كثيرة للاتصال والتعرف والاقتباس وهذا لا ينفي وجود اتصالات دبلوماسية بين الطرفين ، ولو أنها لم تكن واضحة بشكل كبير كما كانت عليه في عصر الخلافة الأموية في الأندلس وهذا الأمر أدى إلى انتقال الكثير من المؤثرات بين الطرفين. وهذه العلاقات مع الشمال من الطبيعي أن تنعكس على العمران الأندلسي من خلال استخدام أنواع من الزخرفة أو من الحجارة المختلفة.ومما لا شك فيه أن تلك السياسة الحكيمة والمستقرة، وفرت علاقات مع ممالك الإسبان في الشمال(مما أدى إلى قدوم أعداد كبيرة من المهندسين و المعمارين)، فانقلبت الهزائم التي منيت بها البلاد في أواخر عصر الإمارة إلى انتصارات رائعة وتحول وضع العرب المسلمين إلى تقدم صاعد نحو الشمال في عصر الخلافة[3]. وهذا الاستقرار السياسي والعسكري أثرت في نهضة عمرانية اقتصادية ما عرفت لها مثيلاً، فقد ازدهرت فيها التجارة والصناعة والزراعة.

ثالثاً: دور الاقتصاد على العمارة:

الارتباط بين العمارة والحالة الاقتصادية يعتبر من الأمور المسلم بها، فالعمارة تعتبر مرآة حقيقية للأوضاع السائدة في أي مجتمع ومن أهمها الحالة الاقتصادية، فكلما ازدهر اقتصاد مجتمع انعكس ذلك على عمارته، مما جعل مقول أن الاقتصاد مرآة المجتمع أمرا حقيقياً لدرجة كبيرة.

كان استتباب الوضع السياسي في الأندلس في عهد الإمارة بمثابة ضوء أخضر أعطى إشارة بدء عملية بناء الاقتصاد الأندلسي، فتحوّلت القوى المهدورة في النزاعات السياسيّة إلى المساهمة في زيادة الإنتاج وتحقيق الرخاء الذي قام على الزراعة والتجارة والصناعة المتوافرة في ذلك الوقت. وبدأ وضع أسس قيام النهضة الزراعيّة والتجاريّة.

وأصبحت بلاد الأندلس كأنّها بستان واحد متّصل، كثيرة المبنى والثّمار، وإذا سافر المرء من مدينة إلى أخرى، سار في مناطق عامرة مأهولة تتخلّلها قرى كثيرة نظيفة ومبيّضة الدور من الخارج، ولم يحتج المسافر أن يحمل معه زاداً أو ماءً[4]. وحيثما وجد عرب أو بربر في منطقة أو أخرى، أعطى هؤلاء المكان سمات متميّزة كما حدث بالنسبة

---

[1] - LProvencal:Histoire del 'EspagneMuslumame , paris 1989, p.225

[2] - الحميري ، المصدر السابق، ص 30 .

[3] - مسعد (سامية مصطفى): العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 2000، ص 26

[4] - الشكعة (مصطفى): تاريخ الأدب الأندلسي ، دار العلم للملايين،1975، ص 21.

للسوريين في كورة البيرة (غرناطة)[1] والمصريين في باجة[2]، والأردنيين في رية[3]، وأهل حمص في إشبيلية[4]، والبربر في المناطق المرتفعة التي تلائم طبيعتهم وتتشابه مع المناطق التي قدموا منها قبل الفتح.

واستفاد الأندلسيون في نشاطهم الزراعيّ من القنوات التي بناها الرومان في القرن الأول الميلادي، لكنّهم زادوا عليها وأصلحوا القديم منها وحسّنوه وشقّوا قنوات جديدة. وأتقن الأندلسيون التعامل بفنون السقاية وجلب المياه من مسافات بعيدة. ففي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، توصل المهندسون المعماريون الأندلسيون إلى ابتكار أعظم الابتكارات العربية في مجال الهندسة الراقية تجسد هذا الابتكار في نظام القنوات الجوفية الذي ساعد على إيصال المياه إلى مدينة مدريد، فق حفرت آبار كثيرة ووضع في قعرها قنوات تمتد حتى تصل مدريد وهي تنحدر من الأعلى إلى الأسفل، وتتألف القنوات الجوفية من قناة ضخمة هي (الأم) ومنها تتفرع في داخل المدينة شبكة معقدة من قنوات صغيرة فرعية، وفي كل عقدة يتجمع عندها عدد من تلك الفروع مقام خزان أو مستودع، وبهذه الخزانات وزعت المياه على جميع الناس بالتساوي[5].

رغم كل الحروب التي خاضها بني أمية في الأندلس فقد كان عصرهم عصر رخاء ويسر استقرت فيه الأوضاع الاقتصادية، وبدت الأندلس غنية بمواردها وأصبح دخل الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر عشرين مليوناً من الذهب[6]. وكان يقسم جباية الأندلس إلى ثلاثة أثلاث ثلث لنفقة الجيش وثلث للبناء والمنشآت العامة، وثلث يدخر للطوارئ[7]. فمن خلال هذا الدخل قام بأعمال البناء والعمران، فعمل على إنشاء مدينة الزهراء واستمر الوضع الاقتصادي بالتطور حتى عهد المنصور ابن أبي عامر. ومن المدن التي بنيت وكانت دليلاً ساطعاً على ازدهار الاقتصاد العربي بالأندلس وبخاصة التجارة، هي المرية[8]، التي أصبحت من أهم الموانئ الأوروبية على شاطئ البحر المتوسط في مجال التصدير والاستيراد[9]. فالأندلس في عصري الإمارة والخلافة دائمة الرواج التجاري والصناعي على الرغم من فترات الاضطرابات التي تعتريها من حين لحين.

---

[1] – غرناطة: تقع في جنوب شرق الأندلس، شغلت أدواراً مهمة في تاريخ الأندلس في العصور الوسطى، وأصبحت منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ملجأ الوجود العربي الوحيد بالأندلس ومعها بعض المدن من حولها. للمزيد: الحميري، المصدر السابق، تحقيق بروفنسال، ص 23.الحموي(أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله بن شهاب الدين ت 626هـ) معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1975، مجلد 4، ص 195.

[2] – باجة: بلد يقع اليوم في جنوب البرتغال إلى الجنوب الشرقي من لشبونة على بعد 180كم. للمزيد: ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف القرطبي ت 469هـ): المقتبس من أهل الأندلس، تحقيق محمود مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973، ص 419.

[3] – رية: تقع في جنوب قرطبة، فيها مدن وحصون عديدة، نزلها جند الأردن من العرب أثناء الفتح. للمزيد: الحموي، المصدر السابق، ج3، ص 116/ الحميري، المصدر السابق، ص 279.

[4] – اشبيلية: تقع إلى الجنوب الغربي من قرطبة، والاسم القديم لها هو اشبالي من أصل ايبيري وقد أصبح بعد الفتح اشبيلية، كانت موكزاً تجارياً للأندلس. للمزيد: الحميري، المصدر السابق، ص 16 وما بعدها/ الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 195.

[5] – احمد(علي)– زعرور(ابراهيم): المرجع السابق، ص 223– 224.

[6] – Dozy, a history of the Moslems in Spain, London, 1913. P 73

[7]– ابن الخطيب(لسان الدين بن محمد السلمانيت 346هـ): أعمال الأعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ط2,1956، ص 38.

[8] – المرية: بنيت في سنة 344هـ/ 956م. للمزيد: الإدريسي(أبي عبد الله محمد بن عبد الله ت 560هـ): صفة المغرب وارض السودان ومصر والأندلس، طبعة ليدن 1864، ص 192/ الحميري، المصدر السابق، ص 538.

[9] – أحمد (علي)– زعرور(ابراهيم): المرجع السابق، ص 207.

نتيجة للازدهار الاقتصادي الذي حققته الأندلس، بلغ النمو الحضري ذروته، وتجلى ذلك في اتساع مختلف المدن الأندلسية حجما وكثافة ونشاطا، وبينما كانت سائر بلدان أوروبا تعيش في ظلمة، نعمت الأندلس بمدن نظيفة منظمة، ذات شوارع واسعة، وكان في ميسور قرطبة وحدها أن تعتزّ بنصف مليون من السكان، وسبعمائة مسجد، وثلاثمائة حمام عمومي، وسبعين مكتبة عامة، وعدد كبير من دكاكين الوراقين، كما تم تأسيس مدن جديدة كالمرية التي أصبحت قاعدة للأسطول البحري الأندلسي احتضنت هذه الحواضر من الدروب الحرفية والأسواق التجارية والفنادق والحمامات والمطاعم، ومختلف أنواع الخدمات ما يفصح عن حدوث نهضة تجارية وصناعية نموذجية. كما ساهمت عملية إصلاح الطرق، وشق مسالك جديدة، وإقامة الجسور، وإصلاح ما تهدم منها في إرساء بنية تحتية متينة مركزها قرطبة، وشراييها تغطي مجموع البلاد.

رابعاً: التأثيرات المحلية في العمارة العربية الأندلسية:

تأثرت العمارة العربية الإسلامية في الأندلس في عصري الأمارة والخلافة، بعمارة البلاد التي دخلتها، فظهرت عمارتها مختلفة بعض الشيء عن العمارة الإسلامية بشكل عام، وظهر الاختلاف في شكل المباني تبعاً للعمارة المحلية، ومواد وطرق الإنشاء المتوفرة، إلا أنها جميعاً تشترك في الروح الإسلامية الكامنة وراء هذه التكوينات المعمارية والتشكيلات الزخرفية.

فالوحدة الفنية من الميزات التي تميز بها الفن الإسلامي [1]، فالفن الإسلامي امتد مجاله فوق رقعة واسعة من الأرض، شملت المسافة التي انتشر عليها الدين العربي، من خليج الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي، وبالرغم من اتساع المساحة فقد تميز الإنتاج الفني العربي بسمات خاصة ذات ارتباطات فلسفية دينية، فرضت عليه نوع من الخط العام الذي ميزه عن غيره، بحيث تستطيع التعرف على نتاجه أينما صادفناه بيسر وسهولة، فمثلاً: إذا عرضنا على شخص تقتصر معرفته بالفنون على المبادئ العامة البسيطة، صوراً لقطعة من النسيج المصري، أو صورة لقطعة من العاج الأندلسي، وثالثة لقطعة من المعادن الإيرانية، فلا شك في أنه يشعر بوحدة أساليبها، ولا يتردد في الحكم بانتمائها جميعاً إلى الفن الإسلامي[2]. نرى أن الفن الإسلامي وحدة متماسكة، تتطبع بمظاهر واحدة وتستمد روحها من إلهام واحد مهما تباينت وتنوعت أشكالها، واختلفت صناعاتها، وبعدت الشقة بين مواطنها، وتشترك جميعها في وحدة الروح الإسلامية [3] .

والأندلس كانت باباً مفتوحاً على مصراعيه للمهندسين والمعماريين الذين كثر توافدهم على البلاد، حيث كان هناك اتصال مباشر بين المعماري المصمم والمالك، لذلك العديد من المباني كانت تخرج ملبية لمتطلبات المالك بقدر كبير. فانقسمت الأبنية حسب انقسام المجتمع، فهناك الأبنية الفخمة، الخاصة بالطبقة الغنية كونها تتولى زمام التشييد والعمران، بما تملكه من رؤوس الأموال. ومن الطبيعي أن تكون الأبنية الفقيرة بالزخرفة والأثاث من نصيب الطبقة الفقيرة.

---

[1]- مرزوق(محمد عبد العزيز): قصة الفن الإسلامي، دار المسرة، ط1، عمان، 1419هـ، 1998 م، ص62/ Jones, Dalu: Architecture P163 .

2- ديماند(م.س): الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد موسى، تصدير أحمد فكري، دار المعارف، مصر ، د.ت، ، ص11.

[3]- عكاشة(ثروت): القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار المعارف، مصر، 1969، ص17.

ويعد المناخ من العناصر المحلية المؤثرة بالعمارة، فالعمارة العربي سواء أكانت في الأندلس أم في جميع المناطق العربية، كان للمناخ تأثيره على جميع العمائر لوجوده في الطبيعة، لذلك فإنها تتلائم مع هذا التأثير البيئي، فالنباتات التي تعيش في المنطقة الاستوائية لا تستطيع العيش في إفريقيا، وكذلك النباتات في المناطق الباردة لا تستطيع العيش في المناطق الاستوائية، وهكذا يتأثر المبنى بنفس القدر بالمناخ المحلي وكذلك بالمباني المجاورة مما يعطيها شكلها المعماري، وبالرغم من تأثير العوامل النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فإنه يتأثر بنفس القدر بالمناخ الذي يعد من العوامل الرئيسية لتكوين وتشكيل المبنى. وقد تمت في الماضي وعلى مدى عصور متعاقبة إجراءات وأساليب خاصة ، تثبت نجاحها بالرغم من بساطتها وذلك للمعالجة المناخية سواء على مستوى الوحدة السكنية الصغيرة،

والمشكلات الأساسية التي يكون بها للمناخ التأثير المباشر على العمائر، هي الحماية من أشعة الشمس ، ومن ثم توفير الطرق المثلى لتوفير التبريد ، والعمل على إيجاد أيضاً طرق لإيصال الضوء إلى مناطق داخلية من الصعب دخول الضوء إليها لضخامة البناء، والاهتمام بإيصال الضوء إلى جميع أجزاء البناء، ظهرت

جلية عند القيام بإضافة توسعات على جامع قرطبة الكبير[1]، ففي التوسعة الثالثة تم تمديد الحرم بإضافة اثني عشر قنطرة إلى صفوف القناطر، والشيء الهام هو إضافة مجموعة قباب للقسم الجديد من الحرم[2] ولعل السبب الرئيس في إضافة القباب، تزويد الحرم بالنور عن طريقها بعد أن تباعدت أقسامه الجديدة عن الصحن. وليس هذا فقط فقد ذكرت الدراسات السمات التي تخدم البناء في المناطق الباردة كالأندلس وهي تسقيف البناء عن طريق جملونات (السقوف المائلة) ففيها تزيد البرودة وتكثر الأمطار نسبياً، وفي السياق نفسه يشار إلى الفتحات في رقبة القبة التي تغطى المصلى في المسجد للوظيفة المناخية، بدخول الإنارة الطبيعية[3] .

بهذا استطاعت العمارة العربية بشكل عام والأندلسية بشكل خاص أن تستغل أشعة الشمس بأسلوب علمي ، لتوفير حماية الإنسان، بالإضافة إلى إحداث القيم الوظيفية والجمالية . لذلك اعتمد التصميم المعماري الإسلامي على تأمين الانعزالية عن المحيط الخارجي، بإيجاد مساحات داخلية في المساجد والقصور.

خاتمة:

صبغ العرب في الأندلس مدنهم بطابع عربي مميز، وذلك بإقامة المساجد التي تعد نواة لعمارة المدن وتمددها، حيث أن المسجد يصبح بمرور الزمن مركز المدن والحواضر وقلبها النابض فمنه تتفرع الطرق الكبيرة المؤدية إلى أبواب المدينة، ثم تتفرع منها الشوارع والأزقة الموصلة للأحياء. وحول ساحة المسجد تقام في الأسواق والحمامات والفنادق والقيساريات. وبداخل المسجد تعقد الاجتماعات السياسية، وتوزع ألوية الجيش، وتدرس العلوم الدينية والعلوم العامة. وهكذا نجد أن للجامع أثراً إيجابياً على حياة المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولقد كانت هذه الظاهرة تتبع في كثير من المدن التي يفتحها أو يختطها المسلمون في شتى أصقاع المعمورة، فهذا هو حال دمشق والإسكندرية وقرطبة وأشبيلية وطليطلة وغيرها.

---

[1] - المقري، نفح الطيب، ج2، ص 545/ ابن عذارى، المصدر السابق، ص 84.

[2] - خالد(طارق): آثار الأندلس، اسبانيا، 1985، ص 44.

[3] - شافعي(فريد): العمارة العربية، الهيئة العامة للنشر، المجلد الأول، القاهرة، 1970، ص 288.

ولقد كانت بلاد الأندلس بمآثرها المختلفة، العلمية والعمرانية والفنية، مركز إشعاع مستديم للحضارة العربية منذ أن توطدت جذور الحكم العربي فيها، ولا سيما في عهد عبد الرحمن الداخل والناصر اللذان كرسا حياتها لبناء الدولة الأموية في الأندلس. فبعهدها بدأ فن العمارة يتلمس طريقه في الأبنية الدينية والمدنية. ومازالت في الأندلس إلى يومنا الحالي شواهد حية على صدق تلك الحركة الكبرى في البناء والتشييد. ذلك أن عناصره المعمارية والزخرفية تؤلف البذور الأولى للفن الأندلسي، حتى أخذت زخارفه تشع في المشرق والمغرب، بل أثرت في الزخرفة المسيحية المجاورة. ولا شك أن عهد الانطلاقة المعمارية هذا يشف عن مثل من أروع أمثلة العمارة الإسلامية.

وفي الأندلس ولي اهتماما بالغا بالفن ومظاهر العمارة المختلفة المدنية والدينية والدفاعية. ومازالت قائمة منذ تلك العهود شواهد معمارية حية تميز بين عهد وآخر، وعلى الرغم من قلة هذه الشواهد المعروفة المتكاملة البناء في عصرنا الحاضر كجامع قرطبة وحمراء وغرناطة، ومنارة أشبيلية وبرج الذهب فيها، إلا أن هناك الكثير من الآثار الأندلسية المتناثرة في مدن وقرى إسبانيا. بل لا نبالغ إذا قلنا أن العمارة الإسبانية في معظم بلدان وسط وغرب وجنوب شبه الجزيرة الأيبيرية هي ذات طابع أندلسي يسهل تمييزه من خلال بعض العناصر المعمارية والزخرفية ذات الأصل الإسلامي التي قدر لها أن تتطور في إسبانيا.

المصادر:

1. ابن الخطيب(لسان الدين محمد السلماني ت 776): أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، دار الكشوف، بيروت، ط2، 1956.
2. ابن العماد الحنبلي(أبو الفلاح عبد الحي ت 1089هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج3.
3. ابن النديم (أبو الفرج محمد بن اسحق ت 383 هـ): الفهرست، تحقيق رضا نجده، طهران، د.ت،ج1
4. ابن حزم (علي بن أحمد ت 456هـ): جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983.
5. ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبي ت 380 هـ): كتاب صورة الأرض، جزء أول، طبع ليون، 1967.
6. ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف القرطبي ت 469هـ): المقتبس من أهل الأندلس، تحقيق محمود مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973.
7. ابن حيان(أبو مروان حيان بن خلف القرطبي ت 469هـ): المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، بيروت، 1965.
8. ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي ت 683 هـ) : المغرب في حلى المغرب، تح شوقي ضيف، ط2، دار المعارف، مصر، ج1، 1955.
9. ابن سهل الأندلسي(الأصبغ عيسى): وثائق في شئون العمران في الأندلس (المساجد والدور) مستخرجة من مخطوط الأحكام ، تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف، مراجعة محمود على مكي- مصطفى كامل اسماعيل، المركز العربي الدولي للإعلام، القاهرة.
10. ابن عذارى المراكشي(أبو العباس أحمد بن محمد ت 712هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق س كولان وليفي بروفنسال، 1951، ج2.

11. ابن كثير(عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمرو بن كثير القرشي ت 477هـ): البداية والنهاية، القاهرة، 1358هـ، ج11.
12. الإدريسي(أبي عبد الله محمد بن عبد الله ت 560هـ): صفة المغرب وارض السودان ومصر والأندلس، طبعة ليدن 1864.
13. الحموي (أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله شهاب الدين ت 626 هـ- 1228 م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1957 م.
14. الحميري(أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ت 710هـ): صفة جزيرة الأندلس في خبر الأقطار، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية 1999.
15. الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد ت 748 هـ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عبد السلام تدميري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1989 م، ج1.
16. السيوطي(جلال الدين بن أبي بكر الشافعي ت 911هـ): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنجاة، مصر ' 1326هـ.
17. القرآن الكريم
18. المقري(شهاب الدين احمد بن محمد ت 1041هـ): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق يوسف محمد، دار الفكر، بيروت، 1998،ج1.
19. المقري(شهاب الدين احمد بن محمد التلمساني ن 1041هـ): أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا و ابراهيم الأبياري و عبد الحفيظ شلبي، القاهرة، 1942، ج2.
20. اليافعي(أبو محمد بن عبد الله بن أسعد بن علي عفيف الدين ت 768هـ): مرآة الجنان وعبرة اليقظان، حيدر آباد، 1338هـ، ج2.

المراجع:

1. أحمد (علي)- زعرور(ابراهيم): مظاهر الحضارة العربية في العصور الوسطى، جامعة دمشق، 2005- 2006.
2. الباشا، حسن: المدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت.
3. الحجي(عبد الرحمن): التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق، الطبعة الخامسة 1997.
4. خالد (طارق): آثار الأندلس، اسبانيا، 1985.
5. ديماند(م.س): الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد موسى، تصدير أحمد فكري، دار المعارف، مصر ، د.ت.
6. الريحاوي(عبد القادر): العمارة الإسلامية، دار البشائر، ط2، دمشق، 1419 هـ .
7. الزركلي(خير الدين): الأعلام، بيروت، ط3، 1969، ج8.
8. سالم(السيد عبد العزيز): قرطبة حاضرة الخلافة، دار النهضة العربية، بيروت، 1971، ج1.
9. ستانلي (لين بول) : قصة العرب في اسبانية، ترجمة علي الجارم، مصر، 1960.
10. شافعي(فريد): العمارة العربية في مصر، الهيئة العامة للنشر، المجلد الأول، القاهرة، 1970.
11. شبارو (عصام محمد): تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، دار مصباح الفكر، بيروت، 1983.
12. الشطاط، تاريخ الإسلام في الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة، ص 113

13. الشكعة (مصطفى): تاريخ الأدب الأندلسي ، دار العلم للملايين،1975، ص 21.
14. العبادي(أحمد مختار): في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية.
15. عبد المجيد(سعد زغلول): العمارة و الفنون في دولة الإسلام ، مكتبة الوفاء، القاهرة، 1986.
16. عطية(محسن محمد): موضوعات في الفنون الإسلامية، دار المعارف، ط2، مصر، 1994.
17. عكاشة(ثروت): القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار المعارف، مصر، 1969.
18. مجموعة مؤلفين: المساجد في المدن العربية، إعداد المعهد العربي لإنماء المدن، مصر، 1990 م.
19. مجموعة مؤلفين: وحدة الفن الإسلامي، معرض عن الفن الإسلامي، مركز الملك فيصل، الرياض، د.ت.
20. مرزوق(محمد عبد العزيز): قصة الفن الإسلامي، دار المسرة، ط1، عمان، 1419هـ، 1998 م.
21. مسعد (سامية مصطفى): العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 2000.
22. مكي(محمود علي): مدريد العربية، وزارة الثقافة، مصر، د.ت.
23. هلال محمد(احمد) : نمط البناء الموجه إلى الداخل النموذج الأمثل لعمارة الصحراء.ندوة التنمية العمرانية في المناطق الصحراوية ومشاكل البناء بها، وزارة الاشغال العامة والإسكان، الرياض 2002م.

المراجع الأجنبية:

A- Carcia Gomez, Ruinade cordoba omeya, al- Andalus, vol, X11, 1947
B- Jones, Dalu: Architecture of the world, Edited by George MICHELL. 1978 thames and Hudson, Ltd, London, PERR IN Ted 1984
C- Dozy, a history of the Moslems in Spain, London, 1913.
D- F.W. robins the story of water supply. Oxford. University. Press 1946.
E- LProvencal: Histoire del 'Espagne Muslumame , paris 1989,